سورة غافر

هى مكية إلا آيتى ٥٦، ٥٧ فمدنيتان ، وآيها خمس وثمانون ، نزلت بعد سورة الزُّمر.

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنه ذكر فى سابقتها ما يئول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .

(٢) إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة ، وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : آل حمٓ ديباج القرآن ، وعنه أيضا إذ وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن لكل شىء لبابا ولباب القرآن آل حمٓ ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شىء ثمرة ، و إن ثمرة القرآن ذوات حمٓ هن روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم» . وعنه أيضا « مثل الحواميم فى القرآن كمثل الخبرات فى الثياب » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) .

الإيضاح

(حمٓ) تقدم الكلام فى أمثال هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور بما يغنى عن إعادته هنا ، وقد اخترنا هناك أن أحسن الآراء فى ذلك أنها كلمات يراد بها

التنبيه فى أول الكلام نحو (ألا) و (يا) وينطق بأسمائها فيقال (حاميم) بتفخيم الألف وتسكين الميم، ويجمع على حواميم وحواميات، وأنكر ذلك الجواليقى والحريرى وابن الجوزى وقالوا لايقال ذلك بل يقال آل حمّ ، ويؤيد ذلك أن صاحب الصحاح نقل عن الفرّاء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب ، وحديث ابن مسعود وقدم تقدم : إذا وقعت فى آل حمّ فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن ، وعلى هذا قول الكميت بن زيد فى الهاشميات :

وجدنا لكم فى آل حمّ آية تأولها منا تقىّ ومُعْرِب

يريد بذلك قوله تعالى : «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».

(تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) أى هذا القرآن تنزيل من الله الغالب القاهر فى ملكه الكثير العلم بخلقه وبما يقولون وما يفعلون .

وفى هذا إيماء إلى أنه ليس بمنقول ولا مما يجوز أن يكذّب به .

(غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) أى وهو الذى يغفر ماسلف من الذنوب، ويقبل التوبة فى مستأنف الأزمنة لمن تاب وخضع، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله وبغى ، المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والنعم التى لايطيقون القيام بشكرها ولاشكر واحدة منها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا » .

وقد ذكر غافر الذنب وقابل التوب لترغيب عباده العاصين ، وذكر شديد العقاب لترهيبهم ، وفى مجموع هذا الحثّ على فعل المراد من تنزيل الكتاب وهو التوحيد والإيمان بالبعث والإخلاص لله فى العمل والإقبال عليه ، وقد جمع القرآن هذين الوصفين فى مواضع كثيرة منه كقوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » ليبقى العبد بين الرجاء والخوف .

(لا إله إلا هو) فلا نظير له ، فيجب اتباع أوامره وترك نواهيه .

(إليه المصير) أى إليه وحده المرجع والمآب ، فيجازى كل نفس بما كسبت .

أخرج أبو عبيد وابن سعد وابن مردويه والبيهقى فى الشُّعَب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى — إليه المصير ، وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) .

شرح المفردات

الجدل : شدة اللدد فى الخصومة ، تقلبهم : أى تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، والأحزاب : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، وهمّت : أى عزمت ، ليأخذوه : أى ليقتلوه ويعذبوه ، ليدحضوا : أى ليزيلوا ، حقت : أى وجبت ، كلمة ربك : أى حكمه بالإهلاك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب أنزله لهداية الناس وسعادتهم فى دنياهم وآخرتهم إذا هم عملوا بهديه — ذكر أحوال من يجادل فيه لغرض إبطاله وإخفاء

نوره ، ثم أرشد رسوله ألا يغتر بأحوال أولئك المجادلين وتركهم سالمين فى أبدانهم وأموالهم يتصرفون فى البلاد للتجارة لسعة الرزق والتمتع بزخرف الدنيا ، فإنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية ممن كذبوا رسلهم فحل بهم البوار فى الدنيا وسينزل بهم النكال فى الآخرة فى جهنم و بئس القرار .

الإيضاح

(ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) أى ما يخاصم فى القرآن بالطعن فيه وتكذيبه كقولهم مرة إنه شعر ، وأخرى إنه سحر وثالثة إنه أساطير الأولين إلى أشباه ذلك من سخيف المقال — إلا الذين جحدوا به وأعرضوا عن الحق مع ظهوره .

وهذا النوع من الجدل هو المذموم ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لاتماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر » أما الجدل لتقرير الحق و إيضاح الملتبس ، وكشف المعضل ، واستنباط المعانى ، ورد أهل الزيغ بها ، ورفع اللبس ، ودفع مايتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، فهو وظيفة الأنبياء ، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح لنوح « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية ، فخرج يعرف فى وجهه الغضب ، فقال إنما هلك من كان قبلهم باختلافهم فى الكتاب ، رواه مسلم .

وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما علىّ : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » الآية ، وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

ولما حكم سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغتر بشىء من حظوظهم الدنيوية فقال .

(فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) أى فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافقة

فى البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب فى رحلة الشتاء فى اليمن ورحلة الصيف فى الشام ، ثم يرجعون سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم وإن أمهلوا فإنهم لايهملون . قال الزجاج : لايغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم .

ثم قال مسليا رسوله عن تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة فى سلفه الأنبياء ، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل فقال :

(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) أى كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم كما هى سنتنا فى أمثالهم من المكذبين كعاد وثمود ومن بعدهم ، وكانوا فى جدلهم على مثل الذى عليه قومك .

(وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أى وحرصت كل أمة على تعذيب رسولهم بحبسه وإصابة ما أرادوا منه . وقال قتادة والسدى ليقتلوه ، فقد جاء الأخذ بمعنى الإهلاك فى قوله تعالى : « فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » .

(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى وخاصموا رسولهم بالباطل بإيراد الشبه التى لاحقيقة لها كقولهم : « مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » ليبطلوا به الحق الذى جاء به من عند الله ، وليطفئوا النور الذى أوتيه . قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا الإيمان .

(فأخذتهم فكيف كان عقاب) أى فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم فلم أبق منهم ديارا ولا نافخ نار وصاروا كأمس الدابر ، وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين كما قال : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل فى آيات الله وإلى ذلك أشار بقوله .

(وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، وقصصت عليك خبرها أن يحل بها عقابى — وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، لأن الأسباب واحدة وهى كفرهم وعنادهم للحق واهتمامهم بإطفاء نور الله الذى بثه فى الأرجاء لإصلاح نظم العالم وسعادته فى دينه ودنياه ، وارتقاء النفوس البشرية والسموّ بها عن الاستخذاء إلى شجر أو حجر أو حيوان طمعا فى خير يرجى منه وشفاعة تنفع عند الله .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) .

شرح المفردات

العرش : مركز تدبير العالم كما تقدم إيضاح ذلك فى سورة يونس ، وندع أمر وصفه إلى الله عالم الغيب فهو العليم بعرشه ووصفه ، وقهم : أى احفظهم من وقيته كذا أى حفظته ، السيئات : أى الجزاء المرتب عليها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسل بالباطل ، لإطفاء نور دعوتهم — أردف ذلك ببيان أن أشرف المخلوقات وهم

الملائكة الذين يحملون العرش والحافّون حول العرش — يحبون المؤمنين و يطلبون لهم المغفرة من ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزنا ، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله .

الإيضاح

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا) أى إن الملائكة الذين يحملون عرش ربهم ، والملائكة الذين هم حوله ينزهون الله متلبسين بحمده على نعمه ، و يقرون بأن لا إله إلا هو ولا يستكبرون عن عبادته ، و يسألون أن يغفر لمن أقروا بمثل ما أقروا به من توحيد الله والبراءة من كل معبود سواه .

ونحن نؤمن بما جاء فى الكتاب الكريم من حمل الملائكة للعرش ، ولا نبحث عن كيفيته ولا عن عدد الحاملين له ، فإن ذلك من الشؤون التى لم يفصلها لنا الكتاب ولا السنة المتواترة فنكل أمر علمها إلى ربنا ، وعلينا التسليم بما جاء فى كتابه .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحمل يراد به التدبير والحفظ ، وأن الحفيف والطواف بالعرش يراد به القرب من ذى العرش سبحانه ، ومكانة الملائكة لديه ، وتوسطهم فى نفاذ أمره .

ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكيا عنهم :

(ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء من خلقك ، والمراد أن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك يحيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

(فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) أى فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عن ذنوبهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك

المنكرات ، واجعل بينهم و بين عذاب الجحيم وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتتم نعمتك عليهم ، فإنك وعدت من كان كذلك بالبعد عن هذا العذاب ولا يبدل القول لديك . قال مُطَرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية .

وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ، ثم قال يا خلف : ما أكرم المؤمن على الله ، يكون نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

(ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ربنا وأدخلهم الجنات التى وعدتهم إياها على ألسنة رسلك ، وأدخل معهم فى الجنة الصالحين من الآباء والأزواج والذرية ، لتقرّ بهم أعينهم ، فإن الاجتماع بالأهل والعشيرة فى موضع السرور يكون أكمل للبهجة وأتم للأنس .

قال سعيد بن جُبير : يدخل الرجل الجنة فيقول يارب أين أبى وجدى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك ، فيقول : يارب كنت أعمل لى ولهم ، فيقال أدخلوهم الجنة ، ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » .

(إنك أنت العزيز الحكيم) أى أنت الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور ، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور .

ثم عمموا فى الدعاء لهم بأن يمنع عنهم العقوبات الدنيوية والأخروية فقالوا :

(وقهم السيئات) أى واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم التى كانوا قد أتوها قبل توبتهم ، ولا تؤاخذهم بذلك فتعذبهم به .

(ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أى ومن تصرف عنه سوء عاقبة ما ارتكب من السيئات يوم القيامة فقد رحمته ونجيته من عذابك .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى وهذا هو الفوز الذى لا فوز أجـــل منه ، ولا مطمع وراءه لطامع ، إذ وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لاينقطع ، و بأفعال قليلة ملـكا لاتصل العقول إلى كنه جلاله .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) .

شرح المفردات

المقت : أشد البغض ، والروح : الوحى ، يوم التلاق : هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، بارزون : أى ظاهرون لايسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله — أردف ذلك ببيان أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم و باستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا مافرط منهم .

و بعد أن هددهم أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته بإظهاره للآيات و إنزاله للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ماسواه ، وكل ماسواه محتاج إليه ، وأنه ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم الجزاء والحساب .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) أى إن الكافرين تناديهم الملائكة يوم القيامة وهم يتلظون النار و يذوقون العذاب فيمقتون أنفسهم و يبغضونها أشد البغض بسبب ما أسلفوا من سيىء الأعمال التى كانت سبب دخولهم فى النار — إن مقت الله لكم فى الدنيا حين كان يعرض عليكم الإيمان فتكفرون — أشد من مقتكم أنفسكم اليوم وأنتم على هذه الحال .

والخلاصة — إن مقت الله لأهل الضلال حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا

فتركوه وأبوا أن يقبلوه — أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، قاله قتادة ومجاهد والحسن البصرى وابن جرير .

ثم ذكر ما يقولونه حين يخاطبون بهذا الخطاب فقال :

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى قالوا ربنا خلقتنا أمواتا وأمتنا حين انقضاء آجالنا ، وأحييتنا أولا بنفخ الأرواح فينا ونحن فى الأرحام ، وأحييتنا باعادة أرواحنا إلى أبداننا حين البعث نقله ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن مسعود ، وجعلوا ذلك نظير آية البقرة : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » .

(فاعترفنا بذنوبنا) أى فاعترفوا أنهم أنكروا البعث فكفروا وفعلوا من الذنوب ما لا يحصى عدّا ، لأن من لم يخش عاقبة يتمادى فى غيه ، ولكن حين رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التى اقترفوها .

ثم طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما فاتهم فقالوا :

(فهل إلى خروج من سبيل) أى فهل أنت معيدنا إلى الدنيا لنعمل غير الذى كنا نعمل فإنك قادر على ذلك .

وهذا أسلوب يستعمل فى التخاطب حين اليأس ، قالوه تحيّرا أو تعللا عسى أن يتاح لهم الفرج .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ » .

فما كان جوابهم عما طلبوا إلا الرفض البات مع ذكر السبب فقال :

(ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى لاسبيل إلى رجعتكم إلى الدار الدنيا ، لأن طباعكم لا تقبل الحق بل تنفيه ، فإنكم كنتم فيها إن دعى الله وحده كفرتم وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله ، فأنتم هكذا تكونون لو رُددتم إلى الدنيا كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

ثم ذكر ما ترتب على أعمالهم التى عملوها وما ضروا إلا أنفسهم فقال :

(فالحكم لله العلى الكبير) أى فالحكم حينئذ لله الذى لايحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة ، وهو ذو الكبرياء والعظمة الذى ليس كمثله شىء ومن ثم اشتدت سطوته بمن أشركوا به ، واقتضت حكمته خلودهم فى النار ، فلا سبيل إلى خروجكم منها أبدا إذ أشركتم به سواه .

ثم ذكر ما يدل على كبريائه وعظمته فقال :

(هو الذى يريكم آياته) أى هو الذى يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى العالم العلوى والسفلى من الآيات العظام الدالة على كمال خالقها وقدرة مبدعها وتفرده بالألوهية كما قال :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم خصص من هذه الآيات ما هم فى أشد الحاجة إليه وهو المطر فقال :

(وينزل لكم من السماء رزقا) أى وهو الذى ينزل لكم المطر الذى يخرج به من الزرع والثمار ما تشاهدونه مما هو مختلف الألوان والطعوم والروائح والأشكال ، مما أبدعته يد القدرة ووشته بأبدع الحلى والمناظر .

(وما يتذكر إلا من ينيب) أى وما يعتبر بتلك الآيات ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من ينيب إلى ربه ، ويتفكر فى بديع ما خلق ، وعظيم ما أوجد ويترك التقليد واتباع الهوى .

والخلاصة — إن دلائل التوحيد مركوزة فى العقول لايحجبها إلا الاشتغال بعبادة غير الله ، فإذا أناب العبد إلى ربه زال الغطاء ، وظفر بالفوز ، وظهرت له سبل النجاة .

ولما ذكر ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) أى إذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص التذكير بمن ينيب فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ، ولا تلتفتوا إلى كراهتهم لذلك ، ودعوهم يموتوا بغيظهم و يهلكوا بحسرتهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن الزبير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب الصلوات المكتوبة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:«ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لايستجيب دعاء قلب غافل لاه » .

و بعد أن ذكر من صفات كبريائه كونه مظهرا للآيات منزلا للأرزاق — ذكر ثلاث صفات أخرى تدل على الجلال والعظمة فقال :

(١) (رفيع الدرجات) أى إنه أرفع الموجودات وأعظمها شأنا ، لأن كل شىء محتاج إليه ، وهو مستغن عما عداه ، و إنه أزلى أبدى ليس لوجوده أول ولا آخر ، و إنه العالم بكل شىء « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

(٢) (ذو العرش) أى إنه مالك العرش ومدبره ، فهو مستول على عالم الأجسام

وأعظمها العرش ، كما هو مستول على عالم الروحانيات وهى مسخرة له ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(٣) (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) أى يلقى الوحى بقضائه على من يشاء من عباده الذين يصطفيهم لرسالته ، وتبليغ أحكامه إلى من يريد من خلقه .

ونحو الآية قوله : « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » وقوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » .

(لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون) أى لينذر بالعذاب يوم يلتقى العابدون والمعبودون ، يوم هم ظاهرون لا يكنهم شىء ، ولا يسترهم شىء .

(لا يخفى على الله منهم شىء) فيعلم ما فعله كل منهم ، فيجازيه على حسب ما قدمت يداه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

ويقال عند بروز الخلق :

(لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) أى يقول الرب تعالى : لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيجيب سبحانه فيقول ذلك أى هو الواحد الذى لا مثل له ، القهار لكل شىء سواه بقدرته ، الغالب بعزته . وقيل : المجيب هم أهل المحشر فقد روى أبو وائل عن ابن مسعود قال : يُحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يُعص الله عز وجل عليها ، فيؤمر مناد ينادى « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » يقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا .

وبعد أن ذكر صفات قهره فى ذلك اليوم — أردفها ببيان صفات عدله وفضله فقال :

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم) أى اليوم يثاب كل عامل بعمله ، فيلاقى أجره ، ففاعل الخير يجزى الخير وفاعل الشر يجزى بما يستحق ، لايبخس أحد ما استوجبه من أجر عمله فى الدنيا فينقص منه إن كان محسنا ، ولا يحمل على مسىء إثم ذنب لم يعمله .

روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا — إلى أن قال — يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »

ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق فى ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاء فقال :

(إن الله سريع الحساب) أى إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة ، لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لمن الملك اليوم — إلى قوله الحساب » .

ونحو الآية قوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ

(١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) .

شرح المفردات

يوم الآزفة : يوم القيامة وسميت بذلك لقربها ؛ يقال أزف السفر : أى قرب ، قال :

أزف الترحُّلُ غير أنَّ ركابنا لما تَزَلْ برحالنا وكأنْ قَدِ

والحناجر : واحدها حنجرة أوحنجور كحلقوم لفظا ومعنى ، وهى لحمة بين الرأس والعنق ، كاظمين : أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج ، والحميم : القريب ، خائنة الأعين : يراد بها النظر إلى ما لا يحل ، ما تخفى الصدور : أى ما تكتمه الضمائر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الأنبياء ينذرون الناس بيوم التلاق — أعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة تصطك منها المسامع وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المهيب.

الإيضاح

(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذميم معتقداتهم التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا .

ثم بين أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال :

(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك

بالله قريب ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شىء وإن كان فى غاية الخفاء فقال :

(يعلم خائنة الأعين) أى يعلم ربكم ما خانت أعين عباده وما نظرت به إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب ، قال ابن عباس فى الآية : هى الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غضوا نظر إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها . وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها ، أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر .

(وما تخفى الصدور) أى لا يخفى عليه شىء من أمورهم حتى ما يحدثون به أنفسهم وتضمره قلوبهم .

(والله يقضى بالحق) أى والله يحكم بالعدل فى الذى خانته الأعين بنظرها ، وأخفته الصدور من النوايا ، فيجزى الذى أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى ، ويجزى الذين رددوا النظر ، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذى أوعدهم به فى دار الدنيا .

(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء) أى والأوثان والآلهة التى يعبدها هؤلاء المشركون من قومك — لا يقضون بشىء لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شىء ، فاعبدوا الذى يقدر على كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

وغير خافٍ ما فى هذا من التهكم بآلهتهم .

(إن الله هو السميع البصير) أى إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة ، البصير بما تفعلون من الأفعال ، وهو محيط بكل ذلك ومحصيه عليكم ، فيجازيكم عليه جميعا يوم الجزاء .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة — أردفه بتخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

الإيضاح

حذر الله هؤلاء المشركين مما حل بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم وأعظم آثاراً كعاد وثمود ، « والسعيد من وعظ بغيره » فقال واعظا ومذكراً : ألم يسر هؤلاء المشركون بالله فى البلاد فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشا ، وأبقى فى الأرض آثاراً ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى واكتسبوا من الآثام ، فأبيدوا جميعا وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا

قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) .

شرح المفردات

السلطان : الحجة والبرهان ، فرعون : ملك القبط بالديار المصرية ، وهامان وزيره ، وقارون كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالا ، عذت : التجأت وتحصنت ، متكبر : أى مستكبر عن اتباع الحق .

المعنى الجملى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم — سلاه أيضا بذكر قصص موسى مع فرعون مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمروا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى خوفا أن يبدل دينهم أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوذ موسى بربه ورب بنى إسرائيل من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يقول سبحانه مسليا نبيه عن تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصر له فى الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ،

فإن الله أرسله بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وجعلوه ساحرا مجنونا حين عجزوا عن معارضته .

وخص فرعون وهامان وقارون بالذكر، لأنهم الرؤساء المكذبون والناس تبع لهم.

ولما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجئوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره ، و إلى هذا أشار بقوله :

(فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى فلما جاءتهم الآيات البينات الدالة على توحيد الله ووجوب العمل بطاعته ، قالوا غيظا وحنقا وعجزاً عن المعارضة : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه من أبناء بنى إسرائيل وأبقوا نساءهم لخدمتنا .

قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ليمتنعوا من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم و يشتد عضدهم بالذكور من أولادهم ، لكن الله شغلهم عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمّل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر .

و إلى هذا أشار سبحانه بقوله :

(وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى وما مكرهم وقصدهم وهو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم — إلا ذاهب سدى و باطلا ، فالناس لا يمتنعون من الإيمان و إن فُعل بهم مافُعل ، و إن القدر المقدور لامحالة نافذ والقضاء المحتوم لابدّ واقع ، والنصر حليف المؤمنين ، كما وعد فى كتابه المكنون « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

والخلاصة — إن ما أظهروه من الإبراق والإرعاد سيضمحل لامحالة ويذهب هباء أمام تلك القوة القاهرة وسيكون النصر للمتقين .

ثم ما كفاهم قتل البنين واستحياء البنات من بنى إسرائيل بل أرادوا أن يجتثوا هذه الشجرة من أصلها كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه) أى وقال فرعون لملئه : دعونى أقتل موسى وليدع ربه الذى أرسله إلينا ليمنعه منا ، وكان إذا همّ بقتله كفوه وقالوا له : ليس هذا بالذى يخاف منه وهو أضعف من ذلك شأنا ، وما هو إلا ساحر يصاوله ساحر مثله ، وإنك إن قتلته أدخلت الشبهة فى نفوس القوم واعتقدوا أنك عجزت عن مقابلة الحجة بالحجة ، وما يزالون به هكذا يحاورونه ويداورونه حتى يكف عن قتله .

وربما يكون قد قال ذلك تمويها على قومه وإيهاما أن حاشيته هم الذين يكفونه عن قتله ، وما يكفه عن ذلك إلا مافى نفسه من هول الفزع الذى استحوذ عليه ، كما يرشد إلى ذلك قوله « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » فإن ظاهره الاستهانة به بدعائه ربه سبحانه ؛ كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك ، وباطنه أن قرائصه كانت ترتعد من دعائه ربه ، فلهذا تكلم بما تكلم به مظهرا أنه لا يبالى بدعائه ربه ، كما يقول القائل ذرونى أفعل كذا وما كان فليكن .

ثم ذكر السبب فى قتله فقال :

(إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) أى إنى أخاف أن يفسد موسى عليكم أمر دينكم الذى أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم فى دينه الذى هو عبادة الله وحده ، أو يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، إذ يجتمع إليه الهَمَل الشُرّد ويكثرون من الخصومات والمنازعات وإثارة القلاقل والاضطرابات ، فتتعطل المزارع والمتاجر وتعدم المكاسب .

والخلاصة — إنه يقول : إنى أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل ، أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل ، وهما أمران أحلاهما مُرّ .

وقد جعل ظهور مادعا إليه موسى وانتشاره فى الأرض واهتداء الناس به فساداً ، وليس الفساد إلا ماهو عليه هو ومن تابعه .

ولما هدد فرعونُ موسى بالقتل استعاذ بالله من كل متعظم عن الإيمان به لايؤمن بالبعث والنشور ، فصانه من كل بلية ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) أى إنى استجرت بالله ربى وربكم واستعنت به من شر كل مستكبر لايذعن للحق ، ولا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه الخلائق ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما أساء ، وإنما خص الاستعاذة بمن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء ، لأنهما عنوان قلة المبالاة بالعواقب ، وعنوان الجرأة على الله وعلى عباده ، فمن لم يؤمن بيوم الحساب لم يكن للثواب على الإحسان راجيا ، ولا من العقاب على الإساءة وقبيح ما يأتى من الأفعال خائفا .

وفى قوله (ربى وربكم) حثّ لهم على موافقته فى العياذ به سبحانه ، والتوجه إليه جل شأنه بالأرواح ، فالأرواح الطاهرة إذا تظاهرت كان ذلك أدنى إلى الإجابة ، وأقرب إلى تحقق الغرض ، ومن ثم شرعت صلاة الجماعة ، وإنما قال (من كل متكبر) ولم يقل « منه » سلوكا لطريق التعريض ، وتحاشيا مما قد يعرض له من الأذى إذا هو سمع كلامه فهو وافٍ بالغرض ومبين للعلة التى لأجلها أبى واستكبر .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) .

شرح المفردات

الرجل المؤمن : هو ابن عم فرعون وولىّ عهده وصاحب شرطته وهو الذى نجا مع موسى وهو المراد بقوله : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى » ، والبينات : هى الشواهد الدالة على صدقه ، والمسرف : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، والكذاب المفترى ، ظاهرين : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن موسى أنه مازاد حين سمع مقالة فرعون الداعية إلى قتله ، على أن استعاذ بالله من شره — أردف ذلك ببيان أن الله قيض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ويذب عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر .

الإيضاح

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟) أى وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه منهم خوفا على نفسه : أينبغى لكم أن تقتلوا رجلا ما زاد على أن قال : ربى الله وقد جاءكم بشواهد دالة على صدقه ، ومثل هذه المقالة لاتستدعى قتلا ولا تستحق عقوبة فاستمع فرعون لكلامه ، وأصغى لمقاله وتوقف عن قتله ، قال ابن عباس : لم يكن فى آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى قال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

وخلاصة ذلك — أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء ، وهى قتل النفس المحرمة من غير روية ولا تأمل ولا اطلاع على سبب يوجب قتله ؟ وما لكم علة فى ارتكابها إلا كلمة الحق ، وهى قوله : ربى الله .

أخرج البخارى وغيره من طريق عروة بن الزبير قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص : أخبرنا بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟ » .

وأخرج البزار وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا أنت ، قال أما إنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى عن أشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم ، فمن ؟ قال أبو بكر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش فهذا يجوءه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، ويجأ هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم رفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم : أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال: ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا رجل أعلن إيمانه وبذل ماله ودمه » .

ثم ذكر من الحجج ما يؤيد به رأيه فقال :

(١) (وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى إن كان كاذبا فى قيله إن الله أرسله إليكم ليأمركم بعبادته وترك دينكم الذى أنتم عليه،

فإنما إثم كذبه عليه دونكم ، وإن يك صادقا فى قيله ذلك أصابكم الذى أوعدكم به من العقوبة على مُقامكم على الدين الذى أنتم عليه مقيمون ، فلا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين : سخطا على الكفر ، وسخطا على قتل رسوله .

وفى قوله : بعض الذى يعدكم ـ مبالغة فى التحذير ، فإنه إذا حذرهم من بعض العذاب أفاد أنه مهلك مخوف فما بال كله ؟ إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار عدم التعصب .

(٢) (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) أى إنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله ، ولما عاضده بتلك المعجزات ، إلى أنه لو كان كذلك لخذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله .

وفى هذا تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعاء الربوبية ، لا يهديه الله إلى سبيل الرشاد ، ولا يلهمه طريق الخير والفلاح .

(٣) (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟) أى يا قوم قد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه بقتله ، فإنه لا قِبَل لكم به ، وإن جاءنا لم يمنعه عنا أحد .

وفى قوله : ينصرنا وجاءنا ، تطييب لقلوبهم ، وإيذان بأنه ناصح لهم ، ساعٍ فى تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، سعيه فى حق نفسه ، ليتأثروا بنصحه .

ولما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم كما حكى سبحانه عنه بقوله :

(قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) أى قال فرعون مجيبا هذا المؤمن الناهى عن قتل موسى : لا أشير عليكم برأى سوى ما ذكرته من وجوب قتله حسما للفتنة ، وإنى لأرى أن هذا هو سبيل الرشاد والصلاح ، ولا أعدّ غير هذا صوابا .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) .

شرح المفردات

الأحزاب : أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، والدأب : العادة ، يوم التناد : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التّنادِ

عاصم : أى مانع ، مرتاب : أى شاك فى دينه ، ويوسف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وروى عن ابن عباس أنه يوسف بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة ، والسلطان : الحجة ، والمقت : أشد الغضب .

المعنى الجملى

بعد أن سمع ذلك المؤمن رأىَ فرعون فى موسى وتصميمه على قتله ، و إقامة البراهين على صحة رأيه ، وأنه لاسبيل إلى العدول عن ذلك — أعاد النصح مرة أخرى لقومه ، لعلهم يرعوون عن غيهم ويثو بون إلى رشدهم ، فذكرهم بأس الله وسنته فى المكذبين للرسل ، وضرب لهم الأمثال بما حل بالأحزاب من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ثم ذكرهم بأهوال يوم القيامة ، يوم لاعاصم من عذاب الله ، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة مَن بعده ، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلا فى الآخرين ، وكأن لسان حاله يقول : هأنذا قد أسمعت ، ونصحت فما قصرت ، والأمر لكم فيما تفعلون .

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) أى قال ناصحا قومه : يا قوم إنى أخاف عليكم إن كذبتم موسى وتعرضتم له بسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوهم كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، فقد نزل بهم من بأس الله وعذابه ما لم يجدوا له واقياً ولا عاصما ، وهذه سنة الله فى المكذبين جميعا ، فحذارِ حذارِ أيها القوم و إنى لكم ناصح أمين ، وما أهلكهم إلا بسوء أفعالهم وعظيم ما اجترحوا من الآثام والمعاصى وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . و إلى هذا أشار بقوله :

(وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما أهلك الله هذه الأمم ظلما لهم بغير جرم اجترموه ، بل أهلكهم بإجرامهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسله ، بعد أن جاءوهم بالبينات ، فأنفذ فيهم قدره ، وأحل بهم وعيده .

و بعد أن خوفهم العذاب الدنيوى خوفهم العذاب الأخروي فقال :

(و ياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة حين ينادى بعضكم بعضا ، ليستغيث به من شدة الهول ، أو حين ينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، و ينادى « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ » و ينادى « أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » .

يوم تولون مدبرين هربا من زفير النار وشهيقها ، فلا يجديكم ذلك شيئا ، ولا تجدون من يعصمكم من العذاب ، فتردّون إليه وينالكم منه ما قدّر لكم وكتب عليكم .

ثم نبه إلى شدة ضلالتهم وعظيم جهالتهم فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله ولا يلهمه رشده فما له هاد يهديه إلى طريق النجاة و يوفقه إلى الخلاص .

وفى هذا إيماء إلى أنه يئس من قبولهم نصحه .

ثم و بخهم بأنهم ورثوا التكذيب بالرسل من آبائهم الأولين ، وأسلافهم الغابرين فقال :

(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى ولقد جاء آباءكم يوسفُ من قبل موسى بالآيات الواضحات ، والمعجزات الباهرات ، فلم يزالوا فى ريب من أمره ، وشك من صدقه ، فلم يؤمنوا به ، حتى إذا مات قالوا : لن يبعث الله رسولا من بعده يدعو إليه ويحذر بأسه ، ويخوف من عقابه ؛ فالتكذيب متوارث ، والعناد قديم ، والريب

دأب آبائكم الغابرين ، وقد نسب تكذيب الآباء إليهم ، لما تقدم من أن الأمم متكافلة فيما بينها ، فينسب ما حدث من بعضها إلى جميعها ، إذا تواطئوا واتفقوا عليه كما جاء فى قصص ثمود حين كذب قُدار فعقر الناقة فنسب الكذب إلى ثمود جميعها كما قال : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

والخلاصة — إنهم كفروا بيوسف فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن ذلك لايجدد عليهم الحجة .

وقد قالوا هذه المقالة على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس فى تكذيب من بعده ، وليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم إلى الشك فى رسالته التكذيب برسالة من بعده .

ثم بين أنه لاعجب فى تكذيبهم فقد طمس الله بصائرهم ، وران على قلوبهم ، حين دسّوا أنفسهم بقبيح الخصال وعظيم الآثام .

(كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أى مثل هذا الضلال الواضح ، يضل الله ويصد عن سبيل الحق ، وقصد السبيل من هو مسرف فى معاصيه مستكثر منها ، شاك فى وحدانيته ووعده ووعيده ، لغلبة الوهم عليه ، وانهماكه فى التقليد .

ثم بين هؤلاء المسرفين المرتابين فقال :

(الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى إن المسرفين المرتابين هم الذين يخاصمون فى حجج الله التى أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج التى لامستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسكون بتقليد الآباء والأجداد ، ويتمسكون بترّهات الأباطيل التى لايقبلها ذوو الحصافة والرأى .

ثم أكد ما سلف وقرره وتعجب من حالهم فقال :

(كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) أى كبر ذلك الجدل بغضا لدى الله والمؤمنين ، فمقت الله إياهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب ، ومقت المؤمنين تظهر آثاره فى هجرهم إياهم ، والاحتراس من التعامل معهم ، وعدم الركون إليهم فى الدين والدنيا .

ثم بين أن هذه سنة الله فيهم وفى أمثالهم فقال :

(كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) أى كما طبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين أبوا أن يوحدوا الله ويصدقوا رسله ، واستعظموا عن اتباع الحق ، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والجدل بغير الحق .

ونسب التكبر إلى القلب ، لأنه هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

قال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) .

شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف ، الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتصل به إلى شىء من حبل وسلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب .

قال زهير بن أبى سُلْمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

والتباب : الخسران والهلاك ، ومنه قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقوله سبحانه : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف تكبر فرعون وجبروته — أبان هنا أنه بلغ من عتوّه وتمرده وافترائه فى تكذيب موسى أن أمر وزيره هامان أن يبنى له قصرا شامخا من الآجرّ ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ، ومقصده من ذلك الاستهزاء به ونفى رسالته ، وأكد ذلك بالتصريح بقوله : « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً » ثم أرشد إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران .

الإيضاح

(وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسى وقتله : يا هامان ابن لى قصرا منيفا عالى الذرا رفيع العماد ، علّنى أبلغ أبواب السماء وطرقها ، حتى إذا وصلت إليها رأيت إله موسى ، ولا يريد بذلك إلا الاستهزاء والتهكم ، وتكذيب دعوى الرسالة من رب السموات والأرض .

والخلاصة — إن هذا نفى لرسالته من عند ربه .

ثم أكد هذا النفى الضمنى بالتصريح به بقوله :

(وإنى لأظنه كاذبا) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يقول ويدعى من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا على قومه ، توصلا بذلك

إلى بقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعلم أن الإله ليس فى جهة العلو فحسب ، وكأنه يقول : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فإذا هو فى السماء ، والسماء لايتوصل إليها إلا بسلم ، فيجب أن نبنى الصرح لنصل إليه .

ثم بين السبب الذى دعاه إلى ما صنع فقال :

(وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) أى وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيىء ، فانهمك فى غيّه ، واستمر فى طغيانه ، ولم يرعو بحال ، وصدّ عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وتدسيته نفسه والسير بها قُدُما فى شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدها .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه وأنه ذاهب سدى وأن الله ناصر أولياءه ، ومهلك أعداءه و« مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » و إلى هذا أشار بقوله :

(وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى وما احتياله الذى يحتال به ليطلع على إله موسى إلا فى خسار وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شىء مما أراده من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر فى العاقبة له «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» .

وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

وَيَاقَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) .

شرح المفردات

الرشاد : ضد الغى والضلال ، متاع : أى يستمتع به أياماً قليلة ثم ينقطع و يزول ، دار القرار : أى دار البقاء والدوام ، إلى النجاة : أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، إلى النار : أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ، ما ليس لى به علم : أى ما لا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان ، لاجرم : أى حقًّا ، دعوة : أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، مردّنا : أى مرجعنا ، وأن المسرفين : أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، فستذكرون : أى فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ، وقاه : حفظه ، يُعرضون عليها : أى تعرض أرواحهم عليها .

المعنى الجملى

اعلم أن هذا المؤمن لما رأى تمادى قومه فى تمردهم وطغيانهم أعاد عليهم النصح مرة أخرى ، فدعاهم أولا إلى قبول هذا الدين الذى هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين

لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة ، وأنها هى الدار التى لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذى يوجب النجاة والدخول فى الجنات ، وهم يدعونه إلى الكفر الذى يوجب الدخول فى النار ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة ، فلا فائدة فى عبادتها ، ومردّ الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين فى المعاصى هم أصحاب النار ؛ ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله وتفويض أمره إلى الله الذى يدفع عنه كل سوء يراد به ؛ ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه فوقاه السوء الذى دبروه له وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط بآل فرعون سوء العذاب فغرقوا فى البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب فى النار .

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) أى يا قوم إن اتبعتمونى فقبلتم منى ما أقول لكم سلكتم الطريق الذى به ترشدون باتباعكم دين الله الذى ابتعث به موسى

ثم زهدهم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال :

(ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار) أى ياقوم ماهذا النعيم الذى عُجِّل لكم فى هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هى دار الاستقرار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالبة على جانب العقاب فقال :

(من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى من عمل فى دار الدنيا معصية

من المعاصى كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكرا كان أو أنثى وهو مؤمن بربه مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهُلْكَة فقال :

(ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار؟) أى أخبرونى كيف أنتم وما حالكم ، أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله بإيمانكم بالله وإجابة رسوله وتصديق ما جاء به من عند ربه ، وتدعوننى إلى عمل أهل النار بما تريدون منى من الشرك؟.

ثم فسر الدعوتين بقوله :

(تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) أى تدعوننى إلى الكفر بالله والإشراك به فى عبادته ما لم يقم دليل على ألوهيته ، وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) أى حقا أن ما تدعوننى إليه من الأصنام لايجيب دعوة من يدعوه ، فهو لاينفع ولا يضر فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ونحو الآية : «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » وقوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ

اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

(وأن مردّنا إلى الله) أى وأن منقلبنا بعد الموت والبعث إلى الله ، وحينئذ يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

(وأن المسرفين هم أصحاب النار) أى وأن المشركين بالله المتعدّين حدوده هم أهل الجحيم خالدين فيها أبدا قاله قتادة وابن سيرين ، وقال ابن مسعود ومجاهد والشعبي : هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها الذين ركبوا أهواءهم ودنّسوا أنفسهم بصنوف المعاصى .

ثم ختم نصحه بكلمة فيها تحذير ووعيد لهم ، ليتفكروا فى عاقبة أمرهم لعلهم يرعوون عن غيهم فقال :

(فستذكرون ما أقول لكم) أى فستعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه وتتذكرونه فتندمون حيث لا ينفع الندم ، وإنى قد بالغت فى نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد .

ثم ابتدأ كلاما آخر يبين به اطمئنانه إلى ما يجرى به القدر ويخبئه له الغيب كما هو دأب المؤمنين الصادقين فقال :

(وأفوّض أمرى إلى الله) أى وأتوكل على ربى وأفوض إليه أمرى وأستعين به ليعصمنى من كل سوء . قيل إنه قال ذلك لما أرادوا قتله والإيقاع به . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه .

ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك فقال :

(إن الله بصير بالعباد) أى إنه خبير بهم فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال لسوء استعداده وتدسيته نفسه ، وله الحجة الدامغة ، والحكمة البالغة ، والقدرة النافذة .

ثم أخبر سبحانه أنه قد كانت النصرة له والهلاك لعدوه فقال :

(فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب) أى فحفظه الله

مما أرادوا به من المكر السيء فى الدنيا ، إذ نجاه مع موسى عليه السلام ، وفى الآخرة بأدخاله دار النعيم ، وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب فى الدنيا بالغرق فى اليمّ ، وفى الآخرة بدخول جهنم و بئس القرار .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قصدوه بالسوء ، وقد روى عن ابن عباس أنه لما ظهر إيمانه قصد فرعون قتله فهرب ونجا .

ثم فصل ما أجمله من سوء العذاب بقوله :

(النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيا ، و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة على النار بالغداة والعشى و ينفّس عنهم فيما بين ذلك ، ويدوم هذا إلى يوم القيامة ، وحينئذ يقال لخزنة جهنم : أدخلوا آل فرعون النار .

قال بعض العلماء وهذه الآية دليل على عذاب القبر ، و يؤيده ما روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار ، و يقال هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة ، ثم قرأ : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » .

وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته فى الآخرة ، قال : عذابا دون العذاب وقرأ : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

وقد أثبت علماء الأرواح حديثا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه ، فقد نرى نائمين فى سرير واحد يقوم أحدهما مذعوراً كئيباً وجلا مما شاهد فى نومه ، بينما نرى الثانى مستبشراً فرحاً بما لاقى من المسرة والنعيم ،

فيروى أنه كان فى حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة وبهاء ، وجمال ورُواء .

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) .

شرح المفردات

المحاجة : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، الضعفاء . الأتباع والمرءوسون ، والمستكبرون :السادة أولو الرأى فيهم ، والتبع : واحدهم تابع لخدم وخادم ، مغنون : أى دافعون ، نصيبا : أى قسطا وجزءا ، حكم : قضى ، الخزنة : واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار ، ضلال : أى فى ضياع وخسار .

الإيضاح

(وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى واذكر أيها الرسول لقومك وقت حجاج أهل النار وتخاصمهم وهم فى النار ، فيقول الأتباع للقادة السادة : إنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، فتكبرتم على الناس بنا .

(فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار؟) أى فهل تقدرون أن تحتملوا عنا قسطا من العذاب فتخففوه عنا ، فقد كنا نسارع إلى محبتكم فى الدنيا ، ومن قِبَلكم جاءنا العذاب ، ولولا أنتم لكنا مؤمنين .

ومقصدهم من هذا المقال تخجيلهم و إيلام قلوبهم ، و إلا فهم يعلمون أنهم لاقدرة لهم على ذلك التخفيف .

فرد عليهم أولئك الرؤساء بما حكاه الله عنهم بقوله :

(قال الذين استكبروا إنَّا كلٌّ فيها) أى وقال رؤساؤهم الذين أبوا الانقياد للأنبياء : إنا جميعا واقعون فى العذاب ، فلو قدرنا على إزالته عن أنفسنا لدفعناه عنكم .

وخلاصة مقالهم : إنا وأنتم فى العذاب سواء .

(إن الله قد حكم بين العباد) بفصل قضائه ، فلا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، وكل منا كافر ، وكل منا يستحق العقاب ولا يغنى أحد عن أحد شيئا .

ولما يئس الأتباع من المتبوعين رجعوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء كما حكى الله عنهم بقوله :

(وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) أى وقال أهل جهنم لخدمها وقوّامها مستغيثين بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء رجاء أن يجدوا لديهم فرجا من ذلك الكرب الذى هم فيه : ادعوا ربكم أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب .

فرد عليهم الخزنة موبخين لهم على سوء ما كانوا يصنعون مما استحقوا عليه شديد العذاب .

(قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟) أى أو ما جاءتكم الرسل بالحجج على توحيد الله لتؤمنوا به وتبرءوا مما دونه من الآلهة ؟

فأجابوهم :

(قالوا بلى) أى قالوا أتونا فكذبناهم ولم نؤمن بهم ولا بما جاءوا به من البينات الواضحة والبراهين الساطعة ، حينئذ قال لهم خزنة جهنم تهكما بهم :

(قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى قالوا لهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم فادعوا أنتم وحدكم ، فإنا لاندعو ان كفر بالله وكذب رسله ، وإن دعاءكم لايفيدكم شيئا فما هو إلا فى خسران وتبار ، وسواء دعوتم أو لم تدعوا فإنه لايستجاب لكم ولا يخفف عنكم .

روى الترمذى وغيره عن أبى الدرداء قال : « يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلون لايغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغصُّون به فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطَّع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبونهم : « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ

اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦).

شرح المفردات

يوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة ، والأشهاد : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، والهدى : ما يُهْتَدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، والإبكار : أول النهار إلى نصفه ، والعشى : من النصف إلى آخر النهار ، والسلطان : الحجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى أول السورة أنه لايجادل فى آيات الله إلا القوم الكافرون ، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلية لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه — أردف ذلك بوعده له بالنصرة على أعدائه فى الدنيا والآخرة ، وتلك سنة الله ، فهو ينصر الأنبياء والرسل ويفيض لهم من ينصرهم على أعدائهم ؛ ويملأ قلوبهم بنور اليقين ، ويلهمهم أن النصرة لهم آخرا مهما تقلبت بهم الأمور .

الإيضاح

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى إنا لنجعل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم ، وننصر معهم من آمن بهم فى الحياة الدنيا إما بإعلائهم على من كذبوهم كما فعلنا بداود وسليمان ، فأعطيناهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر ، وكما فعلنا بمحمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره على من كذبه من قومه — وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل كما فعلنا بنوح وقومه من إغراقهم وإنجائه ، وكما فعلنا بموسى وفرعون وقومه ، إذ أهلكناهم غرقا ونجينا موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل — وإما بانتقامنا

منهم بعد وفاة رسلنا كما نصرنا شعيبا بعد مهلكه بتسليطنا على من قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم ممن قتله .

وكذلك ننصرهم عليهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة لرسلها - بالشهادة بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وأن الأمم قد كذبتهم .

(يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) أى يوم لاينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لايعتذرون إلا بباطل كما حكى سبحانه عنهم من قولهم : «وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» .

(ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) أى ولهم فى هذا اليوم الطرد من رحمة الله ، ولهم شر ما فى الآخرة من العذاب الأليم والقرار فى سواء الجحيم .

ولما بين أنه ينصر الأنبياء والمرسلين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من تلك النصرة فى الدنيا فقال :

(ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولى الألباب) أى ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدى به الناس فى الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه فتوارثوها خلفا عن سلف وصارت هداية لهم وتذكرة لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

و بعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلا بحال موسى خاطب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله :

(فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) أى فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، و بلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجز وعده وناصرك وناصر من صدقك ، وآمن بك على من كذبك

وأستكثر ما جئت به من عند ربك ، وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنه ، وصلّ شكراً له طرفى النهار كما جاء فى الآية الأخرى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ » .

وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله وألا يَفْتُر اللسان عنه ، ولا يغفل القلب حتى يدخل فى زمرة الملائكة الذين قال سبحانه فى وصفهم : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » .

ولما ابتدأ عزّ اسمه بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذى يحملهم على تلك المجادلة فقال :

(إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) أى إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة — ما يحملهم على هذا الجدل إلا كبر فى صدورهم يمنعهم عن اتباعك وقبول الحق الذى جئتهم به ، إذ لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة ، وهم فى صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا فى خدمتك ، وما هم ببالغى موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذى يدرك بالأمانى .

والخلاصة — إنه ما يحملهم على تكذيبك إلا ما فى صدورهم من الكبر والحسد لك ، وما هم ببالغى إرادتهم فيه ، فإن الله قد أذلهم .

ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المستكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال :

(فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) أى فالتجئ إلى الله تعالى فى دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك ، فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شىء منها .

خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمٰى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ويعتقدون استحالته ويعملون أقيسة وهمية ، وقضايا جدلية كقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولهم : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » ذكر هنا برهانا يؤيد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتكم كما جاء فى الآية الأخرى « أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

الإيضاح

(لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أى لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة أعظم فى النفوس وأجلّ فى الصدور ، أكبر من خلق الناس لعظم أجرامها ، واستقرارها من غير عَمَد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة فى مزاولة الأفعال أن علاج الشىء الكبير أشق من علاج الشىء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى ولكن هؤلاء المشركين لايتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها ولا يعلمون أن الله لايعجزه شىء .

وبعد أن ذكر سبحانه الجدل بالباطل ذكر مثلا للباطل والحق وأنهما لايستويان فقال :

(وما يستوى الأعمى والبصير) أى وما يستوى الكافر الذى لايتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما يشاء ويؤمن بذلك ويصدق به — والمؤمن الذى يرى بعينيه تلك الحجج فيتفكر فيها ويتعظ بها ويعلم ما تدل عليه من توحيده وعظيم سلطانه وقدرته على خلق الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها ، وقد ضرب لهما مثل الأعمى والبصير ، ليتبين ذلك الفارق على أتم وجه وأعظم تفصيل ، فما الأمثال إلا وسائل للإيضاح تبين للناس المعقولات وهى لابسة ثوب المحسوسات ، فيتضح ما انبهم منها وخفى من أمرها كما قال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) أى وكذلك لايستوى المؤمنون المطيعون لربهم والعاصون المخالفون لأمره ، ونحو الآية قوله : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ » .

(قليلا ما تتذكرون) أى ما أقل ما تتذكرون حجج الله فتعتبرون بها وتتعظون ، ولو تذكرتم واعتبرتم لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فنى من خلقه وإعادته لحياة أخرى هذه الحياة .

ولما قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة والبعث والنشر — أردفه بالإخبار بأنه واقع لامحالة فقال :

(إن الساعة لآتية لاريب فيها) أى إن يوم القيامة الذى يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لاشك فيه ، فأيقنوا بمجيئه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ،

ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه عليكم ، ليدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وفيها ترون مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ولكن أكثر الناس لايؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لايصدقون بمجيئه ، ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا فى الأرض فساداً ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب المسيب .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) .

شرح المفردات

ادعونى : أى اعبدونى ، أستجب لكم : أى أثبكم على عبادتكم إياى ، داخرين : أى صاغرين أذلاء ، لتسكنوا فيه : أى لتستريحوا فيه ، مبصراً : أى يبصر فيه ،

تؤفكون : أى تصرفون ، قراراً : أى مستقرا ، بناء : أى قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب للسكنى فيها ، فتبارك : أى تقدس وتنزه ، الدين : الطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لاينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لاجرم أمر الله تعالى بها فى هذه الآية .

ولما كانت العبادة لاتنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات .

الإيضاح

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى اعبدونى أثبكم ، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك ومجاهد فى جماعة آخرين ، ويؤيده أن القرآن كثيرا ما استعمل الدعاء بمعنى العبادة كقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً » .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء الاستغفار» وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله يغضب عليه » . أخرجه أحمد والحاكم . وعن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى ، وعن ابن عباس قال : «أفضل العبادة الدعاء » وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخارى فى الأدب عن عائشة قالت «سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل ؟ فقال : دعاء المرء لنفسه » .

ثم صرح سبحانه بأن المراد من الدعاء العبادة فقال :

(إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى إن الذين يتعظمون عن إفرادى بالعبادة و إفرادى بالألوهة سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء .

وفى هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم كبير ، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه ، واستدفاع الشرّ به ، بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة الشديدة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم إليه ، وعوّلوا فى كل مطالبكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التوكل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء مطالبكم ، وحصول رغباتكم ، فهو الكريم الجواد الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، و يغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا .

وعن النعمان بن بشير قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هوالعبادة» ثم قرأ : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى إلى قوله : دَاخِرِينَ» أخرجه الترمذى والبخارى فى الأدب والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية .

ولما أمر بالدعاء، والاشتغالُ به لابد أن يسبق بمعرفة المدعوّ—ذكر الدليل عليه بذكر بعض نعمه فقال :

(١) (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى إن الله الذى لاتصلح الألوهة إلا له ، ولا تنبغى العبادة لغيره ـ هو الذى جعل الليل للسكون والاستراحة من الحركة والتردد فى طلب المعاش والحصول على ما يفى بحاجات الحياة .

(٢) (والنهار مبصرا) أى وجعل النهار مضيئا بشمسه ذات البهجة والرواء ، لتتصرفوا فيه بالأسفار ، وجوب الأقطار ، والتمكن من مزاولة الصناعات ، ومختلف التجارات .

ثم ذكر نتيجة لما تقدم فقال :

(إن الله لذو فضل على الناس) أى فهو المتفضل عليهم بالنعم التى لاتحصى ، ولا يمكن أن تستقصى .

ثم بين أن كثيرا من عباده جحدوا هذه النعم ، واستكبروا عبادة المنعم فقال :

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) هذه النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لغفلتهم وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، وإما عن النظر ، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم كما هو حال الجاهلين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » .

ثم بين كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده فقال :

(ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) أى ذلكم الذى فعل كل هذا ، وأنعم عليكم بهذه النعم هو الله الواحد الأحد خالق جميع الأشياء ، لا إله غيره ولا رب سواه ، فكيف تنقلبون عن عبادته ، وتنصرفون عن توحيده ، وتصرفون عن الإيمان ، مع قيام البرهان ، وتعبدون غيره من الأصنام التى لاتخلق شيئا وهى مخلوقة منحوتة .

ثم ذكر أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم قبلهم ، بل قد سبقهم فى هذا خلق كثير فقال :

(كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله — ضل وأفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل للجهل والهوى .

و بعد أن ذكر من الدلائل تعاقب الليل والنهار ذكر هنا الأرض والسماء فقال:

(الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) أى الله الذى جعل لكم

الأرض مستقرا تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون فى مناكبها ، وجعل لكم السماء سقفا محفوظا مزينا بنجوم ينشأ عنها الليل والنهار والظلام والضياء .

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق والأكوان — ذكر دلائل الأنفس فقال :

(وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات) أى وخلقكم فأحسن خلقكم ، إذ خلق كلا منكم منتصب القامة ، بادى البشرة ، متناسب الأعضاء ، مهيأ لمزاولة الصناعات ، واكتساب الكمالات ، ورزقكم من طيبات المطاعم والمشارب .

(ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) أى ذلكم الذى أنعم عليكم بهذه النعم ، هو الذى لاتنبغى الألوهة إلا له ، ولا تصلح الربوبية لغيره ، لا من لاينفع ولا يضر ، فتقدس الله سبحانه وتنزه وهو ربّ العالمين .

ثم نبه إلى وحدانيته وأمر بإخلاص العبادة فقال :

(هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) أى هو الحى الذى لايموت ، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها ، لامعبود بحق غيره تجوز عبادته وتصلح الألوهة له ، فادعوه مخلصين له الطاعة ، مفردين له الألوهة ، ولا تشركوا فى عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم ، ولا تجعلوا له ندّا ولا عِدْلا .

ثم أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه وجليل عظمته فقال :

(الحمد لله رب العالمين) أى احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملَك وإنس وجن ، لاالآلهة التى تعبدونها ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن نفع غيرها وضره ، وعن ابن عباس أنه قال : « من قال لا إله إلا الله فليقل إثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله : « فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البينات التى جاءته ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة ، والخشب المصوّرة ، و بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

الإيضاح

(قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك من قريش وغيرهم: إنى نهيت أن أعبد ما تدعون من دون الله من وثن أو صنم ، حين جاءتنى الأدلة من عند ربى وهى آيات الكتاب الذى أنزله علىّ وهى مؤيدة لأدلة العقل ومنبهة لها .

وجملة ذلك — إن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التى فى الأكوان والأنفس .

ولما بين أنه نُهى عن عبادة غير الله — أردف ذلك بذكر أنه أمر بعبادته تعالى فقال:

(وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أى وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له ديني.

ثم ذكر من الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال :

(هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل إنسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم ، والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء — ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم .

وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب .

(١) الطفولة . (٢) بلوغ الأشد . (٣) الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة . وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، ولتعقلوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم . وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر — استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة فقال :

(هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له كن فيكون بلا معاناة ولا كُلْفَة .

وهذا تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات حين تعلق إرادته بوجودها ، وتصوير لسرعة ترتب المكوّنات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ؟ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٦) .

شرح المفردات

الكتاب : القرآن ، يسحبون : أى يجرّون ، الحميم : الماء الحار ، يسجرون : أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومنه : «وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» أى : المملوء ، ضلوا عنا : أى غابوا ، تفرحون : أى تبطرون ، تمرحون : تختالون أشراً و بطراً .

المعنى الجملى

عود على بدء بالتعجيب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الفاسدة ، والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟) أى انظر واعجب من هؤلاء المكابرين فى آياتنا الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها ،

كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى على الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها وقيام الأدلة على صحتها وأنها فى نفسها موجبة للتوحيد .

ثم بين صفات هؤلاء المبطلين بقوله :

(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) أى هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا من إخلاص العبادة له سبحانه والبراءة مما يعبد من دونه من الآلهة والأنداد والاعتراف بالبعث بعد الممات .

ثم هددهم وأوعدهم على ما يفعلون فقال :

(فسوف يعلمون . إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون) أى فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما نخبرهم به وصدق ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب حين تجعل الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ، يسحبون بها فى الحميم فينسلخ كل شىء عليهم من جلد ولحم وعروق ، ثم تملأ بهم النار .

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقوله : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ »

ثم ذكر أنهم يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها فقال :

(ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) أى ثم يسألون ويقال لهم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ليغيثوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ؟ فيجيبون ويقولون غابوا عنا وأخذوا طريقا غير طريقنا وتركونا فى البلاء — لا ، بل الحق أننا ما كنا ندعو فى الدنيا شيئا يعتدّ به ، وهذا كما تقول حسبت أن فلانا شىء فإذا هو ليس بشىء ، إذا خَبَرْتَه فلم تر عنده خيرا .

والخلاصة — إنهم اعترفوا بأن عبادتهم إياها كانت عبادة باطلة .

(كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل الله تعالى هؤلاء وأبطل أعمالهم ، كذلك يفعل بأعمال جميع من يدين بالكفر فلا ينتفعون بشىء منها .

ثم بين السبب فيما يأتيهم من هذا العذاب فقال :

(ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أى هذا الذى فعلنا بكم اليوم من شديد العذاب بسبب فرحكم الذى كنتم تفرحونه فى الدنيا بارتكاب الشرك والمعاصى ، ومرحكم وبطركم فيها بتمتعكم باللذات .

(ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أى ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم كما قال تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » خالدين فيها أبدا ، فبئس منزل المتكبرين على الله فى الدنيا أن توحدوه ويؤمنوا برسله — جهنم .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا فى تزييف طرق المجادلين فى آيات الله ، وهنا أمر رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به هؤلاء المشركون فى آيات الله التى أنزلها عليك وعلى تكذيبهم إياك ، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر بهم والعلوّ عليهم وإحلال العقاب بهم ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة كما قال :

(فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) أى فإما نرينّك فى حياتك بعض الذى نعدهم من العذاب والنقمة كالقتل والأسر يوم بدر فذلك ما يستحقونه ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وننتقم منهم أشد الانتقام ونأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ » .

ثم قال مسلّيا رسوله :

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) أى ولقد أرسلنا رسلا وأنبياء من قبلك إلى أممهم ، منهم من أنبأناك بأخبارهم فى القرآن وبما لاقوه من قومهم وهم خمسة وعشرون ، ومنهم من لم نقصص عليك فيه خبرهم ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينهم وبين أقوامهم .

وعن أبى ذر قال : «قلت يارسول الله كم عِدّة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيراً» رواه الإمام أحمد .

(وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى وليس فى الرسل أحد إلا آتاه الله آيات ومعجزات جادله قومه فيها وكذبوه ، وجرى عليه من الإيذاء ما يقارب ما جرى عليك فصبر على ما أوذى ، وكانوا يقترحون عليه المعجزات على سبيل

التعنت والعناد لا للحاجة إليها ، فكان من الحكمة عدم إجابتهم إلى ما طلبوا ، ولم يكن ذلك بقادح فى نبوّتهم ، فلا عجب فى اقتراح قومك عليك المعجزات التى لم يكن إظهارها صلاحا ، لاجرم إذ لم يجابوا إلى ما طلبوا ، لأن المصلحة فى عدم إجابتهم .

(فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) أى فإذا جاء أمر الله وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين قضى بالعدل فنجى رسله والذين آمنوا معهم ، وأهلك الذين افتروا على الله الكذب وجادلوا فى آياته وزعموا أن له شركاء .

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المبطلين وبالغ فى ذلك بما فيه العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — عاد إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لاتحصى .

الإيضاح

(الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون) المراد من الأنعام هنا: الإبل خاصة ، لأنها ذات المنافع التى ذكرت فى الآية ، وقد عد سبحانه لها الفوائد التالية :

(١) أكلها واستعمالها طعاما لهم ولضيفانهم وقد كانوا يتفاخرون بنحرها عند قدوم الطارق .

(٢) لها منافع أخرى كالأوبار والأصواف التى تتخذ منها بيوت الشَّعرَ واللابس الصوفية وقد كانوا يستعملونها كثيراً ، والألبان التى تستعمل شربا و يستخرج منها الجبن ليكون إداما لهم فى طعامهم وسائر حاجتهم المعيشية والجلود التى تدبغ لتكون نعالا وفُرُشا على ضروب شتى .

(٣) استعمالها للنُجْعَة وطلب مساقط الغيث لحاجتهم إلى الكلأ والقوت لهم ولماشيتهم والسفر من صقع إلى صقع ومن قطر إلى آخر ، وهى لما لها من خفّ مفرطح أنسب حيوان للسير فى رمال الصحراء ومن ثم قالوا «الجمل سفينة الصحراء» وقال شاعرهم يصف ذلك :

مَا فَرَّقَ الأُلاَّفَ بَعْـــدَ اللهِ إلا الإبلُ
وما غرابُ البين إلّا ناقةٌ أو جملُ

وقد كانت من أهم سبل المواصلات فى الأزمنة الغابرة فى البر كما كانت السفن كذلك فى البحر .

ونحو الآية قوله فى سورة النحل « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » .

ثم ذكر أن هذه آيات من آيات الله الباهرة التى لامجال لإنكارها فقال :

(و يريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) أى إنه تعالى له آيات يراها خلقه عيانا و يشاهدونها متجددة كل يوم وفى كل آن .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فأيًّا منها تنكرون،و بأيها تعترفون وهى ظاهرة بادية للعيان لاسبيل إلى جحدها.

وقصارى ذلك — إنكم لاتقدرون على إنكار شىء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) .

المعنى الجملى

ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته طلبا للرياسة والجاه والحصول على المال وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل لايغنى عنهم من الله شيئا ، وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فلم ينفعهم شىء من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأنّى لهم ذلك ؟ ، وهيهات هيهات .

فذلك لايجديهم فتيلا ولا قطميرا ، سنة الله فى عباده ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

صاحِ هل ريْتَ أو سمعت براع   ردّ فى الضّرْع ماقرَى فى الحِلاب

الإيضاح

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى أفلم يسر هؤلاء المجادلون فى آيات الله من مشركى قريش - فى البلاد ، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد - إلى ماحل بالأمم قبلهم ، ويشاهدوا ماأحللنا بهم من بأسنا حين تكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، وكيف كانت عاقبة أمرهم ، وقد كانوا أكثر منهم عددا وأشد بطشا وأقوى جندا وأبقى فى الأرض أثرا ، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع ويبنون أهراما ضخمة فلما جاءهم بأسنا ، وحلت بهم نقمتنا لم يغن ذلك عنهم شيئا ، ولا رد عنهم العذاب الذى حل بهم .

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلما جاء هذه الأمم المكذبة للرسل من أرسلوا إليهم بالأدلة الواضحة والبراهين الظاهرة ، فرحوا بما عندهم من شبهات ظنوها علما نافعا كقولهم : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ » وقولهم : « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا » وقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » ولكن حل بهم ما كانوا يستعجلون به رسلهم استهزاء وسخرية .

وقد سمى ماعندهم من العقائد الزائفة،وشبههم الدّاحضة علما تهكما واستهزاء بهم.

ثم ذكر حالهم حين عاينوا العذاب فقال :

(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) أى فلما عاينوا عذابنا النازل بهم قالوا آمنا بالله ، وكفرنا بتلك المعبودات الباطلة ، والآلهة الزائفة التى لاتجدى فتيلا ولا قطميرا .

ثم بين أن ذلك لا يفيدهم شيئا فقد فات الأوان فلا يفيد الندم ولا الاعتراف بالحق شيئا .

ندم البُغاةُ ولاتَ ساعة مَنْدَم والبغىُ مرْتَعُ مبتغيه وَخِيمُ

فقال سبحانه :

(فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أى فلم يفدهم إيمانهم عند معاينة عقابنا وحين ينزل بهم عذابنا ، بعد أن مضى فيهم حكمنا ، فمثل هذا الإيمان لا يفيد شيئا كما قال تعالى لفرعون حين الغرق وحين « قال : آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » — « الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟ » .

و بعد ئذ ذكر سبحانه أن هذه سنته فيهم وفى أمثالهم من المكذبين فقال :

(سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) أى وهكذا كانت سنة الله فى الذين سلفوا إذا عاينوا عذابه لم ينفعهم إيمانهم حينئذ ، بعد أن جحدوا بربهم وأنكروا وحدانيته وعبدوا مَن دونه من الأصنام والأوثان .

وقصارى ذلك — إن حكم الله فى جميع من تاب حين معاينة العذاب ألا تقبل منه توبة ، وقد جاء فى الحديث « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرر » أى فإذا غرغر و بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ، ولهذا قال : « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » .

اللهم اقبل توبتنا ، واغفر حَوْبَتَنا ، وآمن روعتنا ، واجعلنا من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

مجمل ما حوته السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .

(٢) الجدل بالباطل فى آيات الله .

(٣) وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله .

(٤) طلب أهل النار الخروج منها لشدة الهول ثم رفض هذا الطلب .

(٥) إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .

(٦) إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .

(٧) قصص موسى عليه السلام مع فرعون وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والذى يكتم إيمانه .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

(٩) تعداد نعم الله على عباده فى البر والبحر .

سورة فصلت

هى مكية وآيها أربع وخمسون ، نزلت بعد غافر .

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ثم يرد عليه ؟ فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة فقالوا أنته يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عتبة فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلمْ حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا